مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَتِمَّةُ الْأَمْثِلَةِ عَلَى التَّدَبُّرِ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾ [**الذاريات:٣٥-٣٦**].

فَفَرَّقَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِسِرٍّ اقْتَضَاهُ الْكَلَامُ، فَإِنَّ الْإِخْرَاجَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ النَّجَاةِ، فَهُوَ إِخْرَاجُ نَجَاةٍ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مُخْتَصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِلرُّسُلِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾ لَمَّا كَانَ الْمَوْجُودُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ أَوْقَعَ اسْمَ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ امْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتْ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ، وَهِيَ مُسْلِمَةٌ فِي الظَّاهِرِ، فَكَانَتْ فِي الْبَيْتِ الْمَوْجُودِينَ لَا فِي الْقَوْمِ النَّاجِينَ.

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ خِيَانَةِ امْرَأَةِ لُوطٍ، وَخِيَانَتُهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَىٰ أَضْيَافِهِ، وَقَلْبُهَا مَعَهُمْ، وَلَيْسَتْ خِيَانَةَ فَاحِشَةٍ، فَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِينَ ظَاهِرًا، وَلَيْسَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ النَّاجِينَ.

وَمَنْ وَضَعَ دَلَالَةَ الْقُرْآنِ وَأَلْفَاظَهُ مَوَاضِعَهَا تَبَيَّنَ لَهُ مِنْ أَسْرَارِهِ وَحِكَمِهِ مَا يُبْهِرُ الْعُقُولَ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

وَبِهَذَا خَرَجَ الْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الْمَشْهُورِ وَهُوَ: أَنَّ الْإِسْلَامَ أَعَمُّ مِنَ الْإِيمَانِ، فَكَيْفَ اسْتِثْنَاءُ الْأَعَمِّ مِنَ الْأَخَصِّ، وَقَاعِدَةُ الِاسْتِثْنَاءِ تَقْتَضِي الْعَكْسَ؟ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَثْنَيْنَ مِمَّا وَقَعَ عَلَيْهِ فِعْلُ الْوُجُودِ، وَالْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ مُسْتَثْنَيْنَ مِنْهُ، بَلْ هُمُ الْمُخْرَجُونَ النَّاجُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم**﴾ [**الذاريات:٣٧**]. فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ آيَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ وَعَجَائِبَهُ الَّتِي فَعَلَهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَأَبْقَىٰ آثَارَهَا الدَّالَّةَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِهِ، إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا مَنْ يُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ وَيَخْشَىٰ عَذَابَ اللهِ تَعَالَىٰ.

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿**إن فِي ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة**﴾ [**هود:١٠٣**].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**سيذكر من يخشىٰ**﴾ [**الأعلىٰ:١٠**].

فَإِنَّ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ غَايَتُهُ أَنْ يَقُولَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ أَصَابَهُمُ الدَّهْرُ، كَمَا أَصَابَ غَيْرَهُمْ، وَمَا زَالَ الدَّهْرُ فِيهِ الشَّقَاوَةُ وَالسَّعَادَةُ.

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ بِالْآخِرَةِ وَأَشْفَقَ مِنْهَا فَهُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ وَالْمَوَاعِظِ.

وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا إِنَّمَا هُوَ التَّنْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ، عَلَىٰ تَفَاوُتِ الْأَفْهَامِ فِي مَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ، وَاسْتِنْبَاطِ أَسْرَارِهِ وَآثَارِ كُنُوزِهِ.

وَيُعْتَبَرُ بِهَذَا سِوَاهُ، وَالْفَضْلُ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

www.menhaj-un.com

ذَكَرَ هَذَا الْمَثَلَ فِي التَّدَبُّرِ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الرِّسَالَةِ التَّبُوكِيَّةِ»، وَهِيَ الْمَعْرُوفَةِ بِـ «زَادُ الْمُهَاجِرِ إِلَىٰ رَبِّهِ». -رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً-.

فَهَذَا مِثَالٌ ضَرَبَهُ هَذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ فِي كَيْفِيَّةِ التَّدَبُّرِ لِآيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ.

وَقَالَ لَكَ مَا سَتَقُولُهُ إِنْ سُئِلْتَ عَنِ الْآيَاتِ، وَأَنَّكَ سَتَقُولُ كَذَا وَكَذَا، كَمَا فِي صَدْرِ كَلَامِهِ بِضَرْبِ مِثَالِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ شَرَعَ وَهُوَ يُبَيِّنُ لَكَ مَا فَتَحَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْكُنُوزِ عِنْدَ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي نَظَرْتَ -أَنْتَ- فِيهَا، وَتَعَامَلْتَ مَعَهَا، وَقُلْتَ مَا قُلْتَ مِنْ فَهْمِكَ وَتَدَبُّرِكَ لَهَا.

وَشَتَّانَ بَيْنَ مَا نَسْتَخْرِجُهُ نَحْنُ وَمَا يَسْتَخْرِجُهُ مِثْلُ هَذَا الرَّاسِخِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذِهِ الْأَسْرَارَ، وَفَتَحَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْكُنُوزَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾ [البقرة:١٨٦].

مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب**﴾ وَجَدَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَقُلْ لِنَبِيِّهِ ﷺ: فَقُلْ: إِنِّي قَرِيبٌ، بَلْ قَالَ: ﴿**فإني قريب**﴾؛ لِيَدُلَّ عَلَىٰ تَعْظِيمِ حَالِ الدُّعَاءِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: عَبْدِي! أَنْتَ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ الْوَاسِطَةِ إِلَّا فِي طَرِيقِ تَحْصِيلِ الْهِدَايَةِ، فَإِنَّهَا مِنْ طَرِيقِ رُسُلِي، وَأَمَّا فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ فَلَا وَاسِطَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ.

وَهَذَا أَعْظَمُ رَدٍّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ قَلَّدَهُمْ مِنَ الْقَبْرِيِّينَ.

ثَانِيهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**وإذا سألك عبادي عني**﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْعَبْدَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فإني قريب**﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّبَّ لِلْعَبْدِ.

ثَالِثُهَا: أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمْ يَقُلْ: فَالْعَبْدُ مِنِّي قَرِيبٌ، بَلْ قَالَ: أَنَا مِنْهُ قَرِيب، وَفِيهِ سِرٌّ نَفِيسٌ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ مَخْلُوق مُمْكِنُ الْوُجُودِ، وَمَحْتُومٌ عَلَيْهِ بِالْفَنَاءِ، فَلَا يُمْكِنُهُ الْقُرْبُ مِنَ الرَّبِّ، أَمَّا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ فَهُوَ الْقَادِرُ مِنْ أَنْ يُقَرِّبَ مِنَ الْعَبْدِ كَمَا هُوَ قَرِيبٌ مِنْهُ بِعِلْمِهِ، بَلْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ، فَالْقُرْبُ مِنَ اللهِ لَا مِنَ الْعَبْدِ، فَيَحْصُلُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ قُرْبُ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، إِذَا دَعَاهُ بَعْدَ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ وَالِاسْتِجَابَةِ، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، فَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: «**فَإِنِّي قَرِيبٌ**».

رَابِعُهَا: أَنَّ الدَّاعِيَ مَا دَامَ خَاطِرُهُ مُنْشَغِلًا بِغَيْرِ اللهِ، مِنَ الْمَحْبُوبَاتِ وَالْمَعْشُوقَاتِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فِي دُعَائِهِ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي يَرْضَاهَا اللهُ، وَيَطْلُبُهَا مِنَ الْعَبْدِ، فَلَا يَحْظَىٰ بِالْقُرْبِ حَتَّىٰ يَسْتَفْرِغَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ، وَيَكُونَ اللهُ غَايَةَ قَصْدِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ لَا تَحْجُبَهُ الْأَعْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ عَنِ اللهِ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع**﴾ مِنْ رَكَائِزِ التَّوْحِيدِ وَدَعَائِمِهِ؛ إِذْ فِيهَا تَوْجِيهٌ لِلسَّائِلِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ بِالِاسْتِجَابَةِ لِلَّهِ، إِذَا حَصَلَ هَذَا اكْتَسَبَ الْعَبْدُ فِي دُعَائِهِ سَكِينَةً فِي نَفْسِهِ،

وَانْشِرَاحًا فِي صَدْرِهِ، وَصَبْرًا يُسَهِّلُ عَلَيْهِ مَا يُلَاقِيهِ، إِذَا لَمْ يَحْظَ بِسُرْعَةِ الِاسْتِجَابَةِ؛ فَكَيْفَ إِذَا حَظِيَ بِهَا؟!

وَهَذَا نَمُوذَجٌ آخَرُ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فِي السماوات وما فِي الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم**﴾ [البقرة:٢٥٥].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَقِلَّةٍ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ وَاحِدَة تَضَمَّنَتْ مَا تَضَمَّنَتْهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ».

وَقَالَ أَيْضًا: «وَكَانَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ أَفْضَلَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهَا خَبَرٌ عَنِ اللهِ، فَمَا كَانَ مِنَ الذِّكْرِ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ السُّورَةِ وَهَذِهِ الْآيَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْوَاعِ».

فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يَا أُبَيُّ! أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمَ؟ قَالَ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ!**».

فَأَخْبَرَ بِهَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي ذَاكَ أَنَّهَا أَعْلَىٰ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَهَذَا غَايَةُ الْفَضْلِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ مُجْتَمِعٌ فِي الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ، فَإِذَا كَانَتْ أَعْظَمَ الْقُرْآنِ وَأَعْلَىٰ الْإِيمَانِ ثَبَتَ لَهَا غَايَةُ الرُّجْحَانِ.

وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ -كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ-أَعْظَمُ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقُرْآنَ بِآيَاتِهِ وَسُوَرِهِ مِنْ حَيْثُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ، وَهُوَ اللهُ جَلَّوَعَلَا؛ لَا يَتَفَاضَلُ، فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ كَلَامُ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ؛ فَآيَةُ الْكُرْسِيُّ أَعْظَمُ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ؛ لِأَنَّهَا تَتَكَلَّمُ عَنِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ وَصِفَاتِهِ جَلَّوَعَلَا.

وَكَذَلِكَ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، هَذَا مِنْ حَيْثُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ، وَهِيَ:

-تَوْحِيدُ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا.

-وَبَيَانُ مَطْلُوبِ اللهِ جَلَّوَعَلَا مِنْ خَلْقِهِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

- وَمَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مِنْ قَصَصِ السَّابِقِينَ مِنَ النَّاجِينَ وَالْهَالِكِينَ، مِنَ الْمَرْحُومِينَ وَالْمُعَذَّبِينَ.

فَثُلُثُ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ حَوَتْهَا سُورَةُ الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ جَلَّوَعَلَا، فَحِينَئِذٍ صَارَتْ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مِنْ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فَلَا يَتَفَاضَلُ مِنْ حَيْثُ هَذِهِ النَّظْرَةِ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ وَالسُّوَرُ فَيَقَعُ التَّفَاضُلُ الَّذِي ذَكَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ.

*** نَمُوذَجٌ آخَرُ:**

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون**﴾ [**الأعراف:٨٠-٨١**].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿**ولا تقربوا الزنىٰ إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ [**الإسراء:٣٢**]. وَقَوْلَهُ فِي اللِّوَاطِ: ﴿**أتأتون الفاحشة**﴾؛ تَبَيَّنَ لَهُ تَفَاوُتُ مَا بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَكَّرَ الْفَاحِشَةَ بِالزِّنَا، أَيْ: هِيَ فَاحِشَةٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَعَرَّفَهَا فِي اللِّوَاطِ، وَذَلِكَ يُفِيدُ أَنَّهُ جَامِعٌ لِمَعَانِي اسْمِ الْفَاحِشَةِ، كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ الرَّجُلُ، وَنِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ.

أَيْ: أَتَأْتُونَ الْخَصْلَةَ الَّتِي اسْتَقَرَّ فُحْشُهَا عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ؟! فَهِيَ لِظُهُورِ فُحْشِهَا وَكَمَالِهِ غَنِيَّةٌ عَنْ ذِكْرِهَا، بِحَيْثُ لَا يَنْصَرِفُ الِاسْمُ إِلَىٰ غَيْرِهَا.

وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَىٰ: ﴿**وفعلت فعلتك التي فعلت**﴾ [**الشعراء:١٩**]. أَيْ: الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ الظَّاهِرَةَ الْمَعْلُومَةَ لِكُلِّ أَحَدٍ.

كَذَلِكَ فِي تَصْدِيرِ الْمُعَاتَبَةِ بِالْعَفْوِ، فِي قَوْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم حتىٰ يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**﴾ [**التوبة:٤٣**].

فَتَصْدِيرُ الْمُعَاتَبَةِ بِالْعَفْوِ: ﴿**عفا الله عنك**﴾ تَخْفِيفٌ مِنْ وَطْأَةِ الْعِتَابِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، بِخِلَافِ مَا لَوْ عَاتَبَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ.

رَوَىٰ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَوْنٍ قَالَ: سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ بَدَأَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَاتَبَةِ، فَقَالَ: ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم**﴾.

كَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿**هو الذي يسيركم فِي البر والبحر حتىٰ إذا كنتم فِي الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين**﴾ [يونس:٢٢].

الْمُتَدَبِّرُ لِكِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا يَجِدُ أَنَّ لَفْظَ الرِّيَاحِ بِالْجَمْعِ يَرِدُ فِي مَقَامِ الرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالرِّزْقِ وَالْخَيْرِ، وَلَفْظُ الرِّيحِ بِالْإِفْرَادِ يَأْتِي فِي مَقَامِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ وَالْهَلَاكِ.

فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتىٰ إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتىٰ لعلكم تذكرون**﴾ [الأعراف:٥٧].

وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بإذن ربها فأصبحوا لا يرىٰ إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين**﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَأَمَّلْ كَيْفَ اطَّرَدَ هَذَا إِلَّا فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿**هو الذي يسيركم فِي البر والبحر حتىٰ إذا كنتم فِي الفلك وجرين بهم**

بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ [يونس:٢٢].

فَذَكَرَ رِيحَ الرَّحْمَةِ الطَّيِّبَةِ بِلَفْظِ الْإِفْرَادِ؛ لِأَنَّ تَمَامَ الرَّحْمَةِ هُنَاكَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِوِحْدَةِ الرِّيحِ لَا بِاخْتِلَافِهَا، فَإِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَسِيرُ إِلَّا بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ تُسَيِّرُهَا، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهَا الرِّيَاحُ وَتَصَادَمَتْ وَتَقَابَلَتْ فَهُوَ سَبَبُ الْهَلَاكِ، فَالْمَطْلُوبُ هُنَاكَ رِيحٌ وَاحِدَةٌ لَا رِيَاحٌ.

وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَىٰ بِوَصْفِهَا بِالطَّيِّبِ؛ دَفْعًا لِتَوَهُّمِ أَنْ تَكُونَ رِيحًا عَاصِفًا، بَلْ هِيَ مِمَّا يُفْرَحُ بِهَا لِطِيبِهَا؛ فَلْيُنَزِّهِ الْفَطِنُ بَصِيرَتَهُ فِي هَذِهِ الرِّيَاضِ الْمُونِقَةِ الْمُعْجِبَةِ الَّتِي تَرْقُصُ الْقُلُوبُ لَهَا فَرَحًا، وَيُغْتَنَىٰ بِهَا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَتَّاحِ الْعَلِيمِ.

فَمِثْلُ هَذَا الْفَصْلِ يُعَضُّ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَتُثْنَىٰ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ، فَإِنَّهُ يُشْرِفُ بِكَ عَلَىٰ عَجَائِبِ أَسْرَارٍ تَجْتَنِيهَا مِنْ كَلَامِ اللهِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ».

وَالْفَصْلُ مَذْكُورٌ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» لِلْإِمَامِ الْعَلَمِ الْعَلَّامَةِ الْهُمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ.

*** نَمُوذَجٌ آخَرُ:**

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان:١].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَفْظُ الْعَبْدِ فِي الْقُرْآنِ يَتَنَاوَلُ مَنْ عَبَدَ اللهَ، فَأَمَّا عَبْدٌ لَا يَعْبُدُهُ فَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ عَبْدِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ [**الحجر:٤٢**].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿**إلا من اتبعك من الغاوين**﴾ [**الحجر:٤٢**]. فَالِاسْتِثْنَاءُ فِيهِ مُنْقَطِعٌ كَمَا قَالَهُ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَالْعُلَمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**عينا يشرب بها عباد الله**﴾ [**الإنسان:٦**].

﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون علىٰ الأرض هونا**﴾ [**الفرقان:٦٣**].

﴿**واذكر عبدنا داود**﴾ [**ص:١٧**].

﴿**نعم العبد إنه أواب**﴾ [**ص:٣٠**].

﴿**واذكر عبدنا أيوب**﴾ [**ص:٤١**].

﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب**﴾ [**ص:٤٥**].

﴿**فوجدا عبدا من عبادنا**﴾ [**الكهف:٦٥**].

﴿**سبحان الذي أسرىٰ بعبده**﴾ [**الإسراء:١**].

﴿**إنه كان عبدا شكورًا**﴾ [**الإسراء:٣**].

﴿**وإن كنتم فِي ريب مما نزلنا علىٰ عبدنا**﴾ [**البقرة:٢٣**].

﴿**فأوحىٰ إلىٰ عبده ما أوحىٰ**﴾ [**النجم:١٠**].

﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن:١٩].

﴿تبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده﴾ [الفرقان:١]. وَنَحْوُ هَذَا كَثِيرٌ.

* نَمُوذَجٌ آخَرُ:

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ [الحديد:١٦-١٧].

أَشَارَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ سِرِّ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ فَقَالَ: «فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسَاوَتِهَا، وَيَهْدِي الْحَيَارَىٰ بَعْدَ ضَلَّتِهَا، وَيُفَرِّجُ الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَتَّانِ الْوَابِلِ، كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ.

فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الْإِضْلَالِ، وَالْمُضِلُّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ».

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها**﴾

[محمد:٢٤]، فَقَالَ شَابٌّ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ: بَلْ عَلَيْهَا أَقْفَالُهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ اللهُ ﷻ يَفْتَحُهَا أَوْ يُفَرِّجُهَا، فَمَا زَالَ الشَّابُّ فِي نَفْسِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّىٰ وَلِيَ فَاسْتَعَانَ بِهِ لِمَا كَانَ مِنْ سَالِفِ فِقْهِهِ وَفَهْمِهِ، وَجَوْدَةِ تَدَبُّرِهِ لِكَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا).

النَّمَاذِجُ كَثِيرَةٌ عِنْدَ تَطَلُّبِهَا، مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالسِّرِّ فِي تَكْرَارِ الْأَفْعَالِ فِي سُورَةِ الْكَافِرُونَ: ﴿**قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين**﴾ [**سورة الكافرون**].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «أَمَّا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَهِيَ: فَائِدَةُ تَكْرَارِ الْأَفْعَالِ، فَقِيلَ: فِيه وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ نَفْيٌ لِلْحَالِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ مُقَابِلُهُ؛ أَيْ لَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم**﴾ أَيْ لَمْ يَكُنْ مِنِّي ذَلِكَ قَطُّ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ؛ وَلِهَذَا أَتَىٰ فِي عِبَادَتِهِمْ بِلَفْظِ الْمَاضِي، قَالَ: ﴿**ما عبدتم**﴾؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَمْ أَعْبُدْ قَطُّ مَا عَبَدْتُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ مُقَابِلُهُ، أَيْ: لَمْ تَعْبُدُوا قَطُّ فِي الْمَاضِي مَا أَعْبُدُهُ أَنَا دَائِمًا، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَا تَكْرَارَ أَصْلًا.

وَقَدِ اسْتَوْفَتِ الْآيَاتُ أَقْسَامَ النَّفْيِ مَاضِيًا وَحَالًا وَمُسْتَقْبَلًا، عَنْ عِبَادَتِهِ وَعِبَادَتِهِمْ، بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَخْصَرِهِ وَأَبْيَنِهِ، وَهَذَا -إِنْ شَاءَ اللهُ-أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهَا، فَلْنَقْتَصِرْ عَلَيْهِ، وَلَا نَتَعَدَّاهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

وَأَمَّا الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ هِيَ اشْتِمَالُ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَىٰ النَّفْيِ الْمَحْضِ فَهَذَا خَاصَّةُ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، فَإِنَّهَا سُورَةُ بَرَاءَةٍ مِنَ الشِّرْكِ، كَمَا جَاءَ فِي وَصْفِهَا: إِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي فَرْوَةَ الْأَشْجَعِيِّ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

فَمَقْصُودُ السُّورَةِ الْأَعْظَمُ الْبَرَاءَةُ الْمَطْلُوبَةُ بَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، لِهَذَا أَتَي بِالنَّفْيِ فِي الْجَانِبَيْنِ تَحْقِيقًا لِلْبَرَاءَةِ الْمَطْلُوبَةِ، هَذَا مَعَ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلْإِثْبَاتِ صَرِيحًا.

فَقَوْلُهُ: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ بَرَاءَةٌ مَحْضَةٌ.

﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ إِثْبَاتُ أَنَّ لَهُ مَعْبُودًا يَعْبُدُهُ، أَنَّهُمْ بَرِيئُونَ مِنْ عِبَادَتِهِ؛ فَتَضَمَّنَتِ النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ، وَطَابَقَتْ قَوْلَ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ: ﴿**إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني**﴾ [**الزخرف:٢٦-٢٧**].

وَطَابَقَتْ قَوْلَ الْفِتْيَةِ الْمُوَحِّدِينَ: ﴿**وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله**﴾ [**الكهف:١٦**]؛ فَانْتَظَمَتْ حَقِيقَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

لِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا وَبِـ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ وَسُنَّةِ الْمَغْرِبِ، فَإِنَّ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ، سُورَتَا الْإِخْلَاصِ، قَدِ اشْتَمَلَتَا عَلَىٰ نَوْعَيِ التَّوْحِيدِ الَّذِي لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ وَلَا فَلَاحَ لَهُ إِلَّا بِهِمَا، وَهُمَا: تَوْحِيدُ الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ الْمُتَضَمِّنُ تَنْزِيهَ اللهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالْوَلَدِ وَالْوَالِدِ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، ﴿**لم يلد**﴾ فَيَكُونَ لَهُ فَرْعٌ، ﴿**ولم يولد**﴾ فَيَكُونَ لَهُ أَصْلٌ، ﴿**ولم يكن له كفوا أحد**﴾ فَيَكُونَ لَهُ نَظِيرٌ.

وَمَعَ هَذَا فَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي اجْتَمَعَتْ لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ كُلُّهَا، فَتَضَمَّنَتِ السُّورَةُ إِثْبَاتَ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَنَفْيِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الشَّرِيكِ أَصْلًا وَفَرْعًا وَنَظِيرًا، فَهَذَا تَوْحِيدُ الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ.

وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، وَهُوَ أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَا يُشْرَكُ بِهِ فِي عِبَادَتِهِ سِوَاهُ، بَلْ يَكُونُ وَحْدَهُ الْمَعْبُودَ.

وَسُورَةُ ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ هَذَا التَّوْحِيدِ، فَانْتَظَمَتِ السُّورَتَانِ نَوْعَيِ التَّوْحِيدِ وَأَخْلَصَتَا لَهُ، فَكَانَ ﷺ يَفْتَتِحُ بِهِمَا النَّهَارَ فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ، وَيَخْتِمُ بِهِمَا فِي سُورَةِ الْمَغْرِبِ، وَفِي السُّنَنِ أَنَّهُ كَانَ يُوتِرُ بِهِمَا، فَيَكُونَا خَاتِمَةَ عَمَلِ اللَّيْلِ كَمَا كَانَتَا خَاتِمَةَ عَمَلِ النَّهَارِ.

يَالِلَّهِ الْعَجَبُ! مَا أَعْظَمَ التَّدَبُّرَ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمَا أَعْظَمَ الْفَتْحَ الَّذِي يُؤْتِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادِ؛ فَإِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الْمَانُّ وَحْدَهُ بِمَا شَاءَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْجُودِ، عَلَىٰ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْفَهْمِ وَالْفِقْهِ وَالتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ إِنَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

حَوْلَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ

وَهَذَا أَيْضًا نَمُوذَجٌ آخَرُ يَتَعَلَّقُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَامٌ نَفِيسٌ جِدًّا حَوْلَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَهَذَا هُوَ لِأَهَمِيَّتِهِ، وَفَائِدَتِهِ، كَمَا فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ «التِّبْيَانُ فِي أَقْسَامِ -أَوْ أَيْمَانِ- الْقُرْآنِ».

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّحِيحُ أَنَّ ﴿ن﴾ وَ﴿ق﴾ وَ ﴿ص﴾، مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ الَّتِي يَفْتَتِحُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِهَا بَعْضَ السُّوَرِ، وَهِيَ أُحَادِيَّةٌ وَثُنَائِيَّةٌ وَثُلَاثِيَّةٌ وَرُبَاعِيَّةٌ وَخُمَاسِيَّةٌ، وَلَمْ تُجَاوِزِ الْخَمْسَةَ، وَلَمْ تُذْكَرْ قَطُّ فِي أَوَّلِ سُورَةٍ إِلَّا وَعَقِبَهَا يَذْكُرُ الْقُرْآنَ، إِمَّا مُقْسِمًا بِهِ، وَإِمَّا مُخْبِرًا عَنْهُ، مَا خَلَا سُورَتَيْنِ، سُورَةَ ﴿**كهيعص**﴾ وَ﴿ن﴾؛ كَقَوْلِهِ: ﴿**الم ذلك الكتاب**﴾ فِي الْبَقَرَةِ.

﴿**الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب**﴾. فِي آلِ عِمْرَانَ.

﴿**المص كتاب أنزل إليك**﴾ فِي الْأَعْرَافِ.

﴿**المر تلك آيات الكتاب**﴾ كَمَا فِي الرَّعْدِ.

وَهَكَذَا إِلَىٰ آخِرِهِ.

فَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَىٰ شَرَفِ هَذِهِ الْحُرُوفِ، وَعِظَمِ قَدْرِهَا وَجَلَالَتِهَا، إِذْ هِيَ مَبَانِي كَلَامِهِ وَكُتُبِهِ الَّتِي تَكَلَّمَ سُبْحَانَهُ بِهَا، وَأَنْزَلَهَا عَلَىٰ رُسُلِهِ، وَهَدَىٰ بِهَا عِبَادَهُ، وَعَرَّفَهُمْ بِوَاسِطَتِهَا نَفْسَهُ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، وَعَرَّفَهُمْ بِهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالْحَسَنَ وَالْقَبِيحَ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَىٰ التَّكَلُّمِ بِهَا بِحَيْثُ يَبْلُغُونَ بِهَا أَقْصَىٰ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَسْهَلِ طَرِيقٍ، وَأَقَلِّهِ كَلَفَةً وَمَشَقَّةً، وَأَوْصَلِهِ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ، وَأَدَلِّهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، كَمَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِهِ.

لِهَذَا عَابَ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ مَنْ عَبَدَ إِلَهًا لَا يَتَكَلَّمُ، وَامْتَنَّ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِأَنْ أَقْدَرَهُمْ عَلَىٰ الْبَيَانِ بِهَا بِالْكَلَامِ، أَيْ بِتِلْكَ الْأَحْرُفِ، فَكَانَ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْحُرُوفِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ كَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَكَمَالِ إِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ، فَهِيَ أَوْلَىٰ أَنْ يُقْسِمَ بِهَا مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالسَّمَاءِ وَالنُّجُومِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهِيَ دَالَّةٌ أَظْهَرَ دَلَالَةٍ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَكَمَالِهِ وَكَلَامِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ.

وَقَدْ جَمَعَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ -يَعْنِي الْقُرْآنَ وَنُطْقَ اللِّسَانِ-، وَجَعَلَ تَعْلِيمَهُمَا مِنْ تَمَامِ نِعْمَتِهِ وَامْتِنَانِهِ كَمَا قَالَ: ﴿**الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان**﴾ [الرحمن:١-٤].

فَبِهَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَّمَ الْقُرْآنَ، وَبِهَا عَلَّمَ الْبَيَانَ، وَبِهَا فَضَّلَ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، وَبِهَا أَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَبِهَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَبِهَا جُمِعَتِ الْعُلُومُ

وَحُفِظَتْ، وَبِهَا انْتَظَمَتْ مَصَالِحُ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَبِهَا تَمَيَّزَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ، وَبِهَا جُمِعَتْ أَشْتَاتُ الْعُلُومِ، وَبِهَا أَمْكَنَ تَنَقُّلُهَا فِي الْأَذْهَانِ.

وَكَمْ جُلِبَ بِهَا مِنْ نِعْمَةٍ، وَدُفِعَ بِهَا مِنْ نِقْمَةٍ، وَأُقِيلَتْ بِهَا مِنْ عَثْرَةٍ، وَأُقِيمَتْ بِهَا مِنْ حُرْمَةٍ، وَهُدِيَ بِهَا مِنْ ضَلَالٍ، وَأُقِيمَ بِهَا مِنْ حَقٍّ، وَهُدِمَ بِهَا مِنْ بَاطِلٍ.

فَآيَاتُهُ سُبْحَانَهُ فِي تَعْلِيمِ الْبَيَانِ كَآيَاتِهِ تَعَالَىٰ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَسُبْحَانَ مَنْ هَذَا صُنْعُهُ فِي هَوَاءٍ يَخْرُجُ مِنْ قَصَبَةِ الرِّئَةِ، فَيَنْضَمُّ فِي الْحُلْقُومِ، ثُمَّ يَنْفَرِشُ فِي أَقْصَىٰ الْحَلْقِ وَوَسَطِهِ وَآخِرِهِ، وَأَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ، وَعَلَىٰ وَسَطِ اللِّسَانِ وَأَطْرَافِهِ، وَبَيْنَ الثَّنَايَا، وَفِي الشَّفَتَيْنِ وَالْخَيْشُومِ، فَيُسْمَعُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ مَقْطَعٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَاطِعِ صَوْتٌ سِوَىٰ صَوْتِ الْمَقْطَعِ الْمُجَاوِرِ لَهُ، فَإِذَا هُوَ حُرُوفٌ.

فَأَلْهَمَ سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانَ نَظْمَ بَعْضِهَا إِلَىٰ بَعْضٍ فَإِذَا هِيَ كَلِمَاتٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا، ثُمَّ أَلْهَمَهُ تَأْلِيفَ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ بَعْضِهَا إِلَىٰ بَعْضٍ فَإِذَا هِيَ كَلَامٌ دَالٌّ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الْمَعَانِي أَمْرًا وَنَهْيًا، وَخَبَرًا وَاسْتِخْبَارًا، وَنَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَإِقْرَارًا وَإِنْكَارًا، وَتَصْدِيقًا وَتَكْذِيبًا، وَإِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، سُؤَالًا وَجَوَابًا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخِطَابِ نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ، وَوَجِيزِهِ وَمُطَوَّلِهِ، عَلَىٰ اخْتِلَافِ لُغَاتِ الْخَلَائِقِ، كُلُّ ذَلِكَ صَنْعَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي هَوَاءٍ مُجَرَّدٍ خَارِجٍ مِنْ بَاطِنِ الْإِنْسَانِ إِلَىٰ ظَاهِرِهِ، جَارٍ فِي مَجَارٍ قَدْ هُيِّئَتْ وَأُعِدَّتْ لِتَقْطِيعِهِ وَتَفْصِيلِهِ، ثُمَّ لِتَأْلِيفِهِ وَتَوْصِيلِهِ؛ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، فَهَذَا شَأْنُ الْحَرْفِ الْمَخْلُوقِ.

وَأَمَّا الْحَرْفُ الَّذِي تَكُونُ بِهِ الْمَخْلُوقَاتُ؛ فَشَأْنُهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ، وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ الْحُرُوفِ فَحَقِيقٌ أَنْ تُفْتَتَحَ بِهَا الصُّوَرُ، كَمَا افْتُتِحَتْ بِالْأَقْسَامِ لِمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَدِلَّةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَكَمَالِ رَحْمَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَلُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ.

وَإِذَا أَعْطَيْتَ الِاسْتِدْلَالَ بِهَا حَقَّهُ اسْتَدْلَلْتَ بِهَا عَلَىٰ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالتَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ، فَهِيَ مِنْ أَظْهَرِ أَدِلَّةِ شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَكَلَّمَ بِهِ حَقًّا، وَأَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَحْيًا، وَبَلَّغَهُ كَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ صِدْقًا.

وَلَا تُهْمِلِ الْفِكْرَةَ فِي كُلِّ سُورَةٍ افْتُتِحَتْ بِهَا هَذِهِ الْحُرُوفُ، وَاشْتِمَالَهَا عَلَىٰ آيَاتِ هَذِهِ الْمَطَالِبِ وَتَقْرِيرِهَا.

وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يُوَفِّقُكَ.

مِنْ أَعْظَمِ مَا يَنْبَغِي أَنْ تُنْفَقَ فِيهِ الْأَعْمَارُ وَيُحْرَصَ عَلَيْهِ، مَا يَتَعَلَّقُ بِكِتَابِ اللهِ.

مِنَ الْآنَ! فَلْننَظْرْ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا نَظْرَةً جَدِيدَةً، مُشْتَمِلَةً عَلَىٰ التَّدَبُّرِ فِي الْآيَاتِ، وَلَا يَكُنْ مِنْ هَمِّنَا أَنْ نَصِلَ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَمُّنَا أَنْ نَتَأَمَّلَ فِي خِطَابِ رَبِّنَا لَنَا، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ الْقُرْآنَ وَهُوَ كَلَامُهُ، مُوَجَّهًا إِلَىٰ خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ، لِهِدَايَتِهِمْ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ الْعَقِيمِ.

وَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذَلِكَ أَتَمَّ بَيَانٍ وَأَحْسَنَهُ، وَوَضَّحَهُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَأَجْمَلَهُ وَفَصَّلَهُ، وَبَلَّغَهُ رَسُولُهُ ﷺ فَقَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَىٰ خَلْقِ اللهِ فِي أَرْضِهِ.

فَلَا يَنْبَغِي، وَالْقُرْآنُ خِطَابٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْهُ إِلَيْكَ، بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ ﷺ، أَنْ تُهْمِلَ فَهْمَ خِطَابِهِ، فَإِنَّ الْمَلَكَ إِذَا أَرْسَلَ إِلَىٰ آحَادِ الرَّعِيَّةِ كِتَابًا فَأَخَذُوا يَتَأَمَّلُونَ فِي ظَاهِرِهِ مِنْ غَيْرِ نَفَاذٍ إِلَىٰ حَقِيقَةِ مَعَانِيهِ فِي بَاطِنِهِ، فَلَمْ يَمْتَثِلُوا أَمْرًا أَمَرَ بِهِ الْمَلِكُ، وَلَمْ يَنْتَهُوا عَنْ نَهْيٍ نَهَىٰ عَنْهُ الْمَلِكُ، وَلَمْ يَتَدَبَّرُوا فِي إِرْشَادَاتِهِ وَآدَابِهِ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا دَارُوا حَوْلَ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَنْفُذُوا إِلَىٰ مَعَانِيهَا، فَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَلِكَ يُعَاقِبُهُمْ أَشَدَّ عِقَابٍ وَأَمَرَّهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحَقِّقُوا مَقْصُودَهُ مِنْ خِطَابِهِ إِلَيْهِمْ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْخِطَابُ لَنَا مِنْ كَلَامِ رَبِّنَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ؟!

وَالْقُرْآنُ هِدَايَةُ الْعَالَمِ، وَهُوَ الْمُخَلِّصُ مِنَ الْمَأْزِقِ الَّذِي فِيهِ الْخَلْقُ فِي الْأَرْضِ، لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْ هَذَا الْمَأْزِقِ إِلَّا بِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَإِذَا كَانَ النَّاسُ لَا يَفْهَمُونَ كِتَابَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا لَهُ يَتَدَبَّرُونَ، وَلَا عَلَيْهِ بِالنَّظَرِ وَالْفِقْهِ وَالْفَهْمِ يَعْكُفُونَ؛ فَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ الْعَالَمُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْبُؤْسِ، وَمَا هُوَ فِيهِ وَمُقْدِمٌ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَرِ؟!

وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِهِدَايَةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَيُضَمُّ إِلَيْهَا هِدَايَةُ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ السُّنَّةِ، فَهِيَ كَالْمُذَكِّرَةِ التَّوْضِيحِيَّةِ الْمُفَسِّرَةِ، وَهِيَ الَّتِي تُبَيِّنُ مَا أُجْمِلَ، وَهِيَ الَّتِي تُفَصِّلُ مَا جُمِعَ، وَهِيَ الَّتِي تُخَصِّصُ مَا عُمِّمَ، وَهِيَ الَّتِي تُقَيِّدُ مَا أُطْلِقَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَلَاقَةِ السُّنَّةِ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

فَعَلَيْنَا أَنْ نُولِيَ ذَلِكَ أَعْظَمَ اهْتِمَامٍ، وَأَنْ نَتَوَفَّرَ عَلَيْهِ تَوَفُّرًا يُؤَدِّي بِنَا إِلَىٰ فَهْمِ كَلَامِ رَبِّنَا، بَعْدَ تَدَبُّرِهِ تَدَبُّرًا صَحِيحًا.

وَكَمَا رَأَيْتُ مِنْ حَالِ الْأَئِمَّةِ، وَهُوَ نَزْرٌ يَسِيرٌ، قَطْرَةٌ فِي بَحْرٍ مِمَّا أَتَوْا بِهِ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ رَحِمَهُمُ اللهُ، عِنْدَ نَظَرِهِمْ وَتَدَبُّرِهِمْ فِي كِتَابِ رَبِّهِمْ جَلَّوَعَلَا، وَمَا فَتَحَ اللهُ لَهُمْ مِنْ آفَاقِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ عِنْدَ إِخْلَاصِ قُلُوبِهِمْ، وَانْطِلَاقِ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ بِالشَّوْقِ وَالْمَحَبَّةِ لِتَدَبُّرِ كِتَابِ رَبِّهِمْ جَلَّوَعَلَا.

فَهَذَا الَّذِي فَتَحَ لَهُمْ فِيهِ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذَلِكَ الْفَتْحَ الْعَظِيمَ مَسْطُورٌ مَزْبُورٌ فِي مُؤَلَّفَاتِهِمْ.

وَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَبْحَثَ وَأَنْ يَتَأَمَّلَ وَأَنْ يَتَدَبَّرَ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ مَعْنَىٰ الْقُرْآنِ الَّذِي أَرَادَهُ الرَّحْمَنُ تَوْصِيلًا لِلْإِنْسَانِ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ، أَنْ يَفْتَحَ بِنَا فِي الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ فَتْحًا مُبَارَكًا؛ إِنَّهُ هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، وَالْبَرُّ الرَّحِيمُ، وَهُوَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَبَعْدُ: فَهَذَا مَا مَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ مِنْ جَمْعٍ وَإِعْدَادٍ وَتَرْتِيبٍ وَقِرَاءَةٍ فِي بَعْضِ مَوَادِّ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْكَبِيرِ وَهُوَ: تَدَبُّرُ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ.

وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجُودِهِ وَنِعْمَتِهِ، فِي مَجَالِسَ أَوَّلُهَا فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ، مِنْ هِجْرَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

الْمُوَافِقَ لِلسَّابِعِ مِنْ شَهْرِ يُونْيَه، سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ.

وَآخِرُهَا فِي لَيْلَةِ السَّبْتِ، الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ، مِنْ هِجْرَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

الْمُوَافِقَ لِلسَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يُونْيَه، سَنَة سَبْعَ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ.

وَكَانَ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ وَمِنَّتِهِ، وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَعَطَائِهِ تَعَالَىٰ وَرَحْمَتِهِ، فِي الْمَسْجِدِ الشَّرْقِيِّ بِسُبْكِ الْأَحَدِ، مِنْ أَعْمَالِ مُحَافَظَةِ الْمُنُوفِيَّةِ، بِمِصْرَ حَفِظَهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ وَتَآمُرٍ وَخِيَانَةٍ وَغَدْرٍ.

وَصَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ أَبَوَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْآلِ وَالصَّحْبِ أَجْمَعِينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا؛ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَتُبْ عَلَيْنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

www.menhag-un.com